

تقرير

ذكرى 13 تشرين واقعية أكثر... دونكيشوتية أقل

في ظل الجنازات اليومية والضربات الجوية وصراع الوجود في المنطقة، تبدو ذكرى 13 تشرين الأول 1990 مجرد ورقة في هذه الروزنامة الكئيبة. يحضر الجنرال طريف، بعيداً بإبرة، منفتحاً على الجميع، بعيداً عن المعارك الدونكيشوتية التي يحب بعض نوابه خوضها

عسان سمود

لا يشعر رئيس تكتل التغيير والإصلاح العماد ميشال عون بضغوط تذكر في ما يتعلق بالاستحقاق الرئاسي. بدل الدفاع عن نفسه في وجه اتهامه بتعطيل انتخاب رئيس جديد، حرص على أن يحمله الجميع هذه المسؤولية لينتزع، بطريقة غير مباشرة، الاعتراف بأنه الناخب والمرشح الأول والأخير في هذا الاستحقاق. وهذا تحقق فعلاً: يمكن بكركي التصريح بما تريد. لن يتغير شيء ما لم يترك البطريرك بشارة الراعي باب عون للتفاهم معه، بحسب أحد نواب المتن العونيين. أما القوات، فيمكنها، وفقاً للنائب نفسه، مواصلة تصعيدها القضائي بعدما ولت أيام تصعيدها العسكري إثر بيع قائدها «سلاح حماية المجتمع المسيحي». لن يغير هذا في واقع جعجع المرشح لرئاسة

بيدي عون جدية كبيرة في التوصل إلى نظام داخلي يرضي الجميع في التيار

الجمهورية عاجز عن الفوز بكرسي نيابي في منطقته. وفي السياق، يتعين على الرئيس سعد الحريري الاستمرار في الهروب من عون، كما فعل عادة انتخاب مفتي الجمهورية، ريثما يجد تبريراً مقنعاً لتراجعته عن وعده الباريسي. يوماً، توجه الجنرال إلى دار الافتاء متطلعاً إلى وضع عينه في عين الحريري، إلا أن الأخير غادر بسرعة، بعدما رمت الرابطة كرة التفاهم على الاستحقاق الرئاسي في ملعبه. أما العلاقة مع حزب الله فيسودها اطمئنان كامل إلى أن للحزب مرشحاً رئاسياً واحداً هو: ميشال عون.

يوصل عون حصده النقاط. ترتفع معنوياته أو تنخفض تبعاً لمسار التسويات الإقليمية. لكنه يفترض أن ما تحقق حتى الآن، خصوصاً مع النائب وليد جنبلاط، أشبهه بقطع ثلثي الطريق إلى بعيداً. ولعل مشروع الرئيس في اليوم هو تعميق التفاهم السطحي مع الرئيس نبيه بري، مع ما يقتضيه ذلك من تسليم الجنرال بمهارة بري في طبخ التسويات، ووقف مساعي نوابه للعب في ملعب بري النيابي. وليست الموافقة العونية على تحويل سلسلة الرب والتراتب من لجنة المال والموازنة إلى اللجان المشتركة، بعد كل بطولات النائب ابراهيم كنعان الإعلامية، سوى خطوة أولى، تليها موافقة العونيين على الاستعاضة عن استعراضات لجنة المال والموازنة حول الموازنة بسطر صغير يكتبه وزير المال علي حسن الخليل. واضح أن الجنرال مل المعارك الدونكيشوتية

مع النائب ميشال المر، وكتّاب الكتب، وافتعال المشاكل مع رئيس المجلس. التوق العوني إلى المصالحة يشمل الأقربين والأبعدين. سرب الجنرال، قبل نحو عام، خبراً عن نيته توريث الوزير جبران باسيل قيادة التيار الوطني الحر. وجلس بعد طرد المسربين يرصد ردود الفعل: سرعان ما تبين أن الهدف الرئيسي لغالبية النواب (باستثناء الآن عون وسميرون أبي رميا) هو الحفاظ على كراسيهم سواء كان باسيل رئيس تيارهم أو النائب السابق شامل موزايا. أما النشاطاء المعروفون في الإعلام فلن يفكروا مرتين إذا خبروا بين كراسي التنظيم الحزبي والوظائف الرسمية: يفهمون أن يعينهم باسيل قناصل فخريين في إحدى الجزر البعيدة ليؤيدوه مدى الحياة. ليبقى هناك نعيم عون (إبن شقيق الجنرال) بما يمثله من حاضنة لكثير من الشباب، وهو استبق إعلان التيار عن نظامه الداخلي قبل ثلاثة أشهر بالقول بصوت عال أنه لن يوقع على تسليم التيار أبداً كان الثمن. فما كان من «العونيين» إلا أن شرعوا مجدداً في نقاش صريح عما يضمن تحقيق كل منهما لأهدافه من التنظيم الحزبي، في ظل إبداء عون الأول جدية كبيرة في التوصل إلى نظام يرضي الجميع، وهو ما تقدم كثيراً في الأسابيع القليلة الماضية، وأدى إلى تعديلات بنوية في النظام الداخلي المتداول تضمن هامشاً أكبر للديمقراطية الحزبية، فيما يقف إقرار النظام الجديد عند بندين فقط: آلية تعيين المكتب السياسي، وآلية اتخاذ القرار السياسي.

فعلياً، تدرك الرابطة، بحسب أحد النواب الكسروانيين، أن الخشية من الفراغ الأمني القائم أعظم من كل شيء آخر. مقارنة بالمخاوف الأمنية هناك لا مبالاة شعبية بالاستحقاق الرئاسي ولا مبالاة حزبية بالنظام الداخلي وهوية الرئيس وصلاحيات المسؤولين وغيره. مع ذلك، يعترف النائب، ثمة مواكبة عونية للحالة الأمنية لكن لا مبادرة. أنهكت الحرب الأهلية السابقة عون ومجتمعها؛ انتقل عون من الافتراض بأن التفاهم مع حزب الله أشبه ببناء حائط دعم للمجتمع المسيحي إلى الإيمان الراسخ بأن الحزب هو حائط الدفاع الأول والأخير عن التعددية اللبنانية. وهو يفترض اليوم أن التفاهمات الجانبية المحدودة مع جنبلاط والحريري تدعم هذا الحائط بعدما شارف على اليأس من دور متقدم للمؤسسة العسكرية على هذا الصعيد في ظل قائدها الحالي. مع العلم أن قهوجي انتقل أخيراً من محاولته حصار نفوذ قائد فوج المغاوير العميد شامل روكز إلى التودد له ومحاولة استيعابه مجدداً، معيدا قرار فصل مغاوير القتال الجبلي عن فوج المغاوير إلى الجارور مجدداً.

خيوط اللعبة

زياد رحباني... سنفهمك يوماً

سامي كليب

قبل أيام، اغتيل في مخيم عين الحلوة القيادي الفتاوي وليد ياسين. فوجئ من شاهد الجثة ان الرصاصة التي اخترقت جسده هي من نوع ثقيل أحدثت فجوة كبيرة بين الضلوع. ثمة من اعتقد بأن الهدف هو إثارة الهلع في قلوب الفتاويين وغيرهم. لم تُعرف حتى الآن أسباب هذه الجريمة رغم تشابه التوقيع والشكل مع جرائم كثيرة تحدث الآن في الوطن العربي.

يفلق الدكتور اسامة سعد القيادي الناصري العروبي، كما كل أولئك الخائفين من أصابع تريد تفجير المخيمات أو تسهيل مرور واقامة «داعش» فيها. يتحلّق الزوار في مكتبة الصيداوي. يتبادلون الحديث. ليسوا كلهم من صيدا. فيرا يمّين، عضو المكتب السياسي في تيار «المردة»، جاءت من اهدن. لا يؤثر طول الطريق بين الشمال والجنوب على تدفق كلامها وبقة التحليل والابتسامه الدائمة. قيادي ناصري شاب جاء من القاهرة. ضيوف آخرون نزلوا من الجبل والبقاع... هدفهم في القاعة المجاورة.

يتشابك الحديث. يدخل شاب يدعو الجميع الى القاعة المجاورة. هي قاعة المناضل العمالي الصادق الشهيد معروف سعد. فيها الليلة حدث كبير. فجأة تضجّ القاعة بالتصفيق. ترتفع الموسيقى. يبتسم أسامة سعد وصحبه. بين الموسيقيين والمغنين فتاة طويلة القامة. عينها الفرحتان تلمعان تحت نظارتها. تحت النظارات تلمع شفتان بلون حمرة فاقع يناقض قميصها الاصفر. تغني. تتراقص. تتمايل. ينتفض شعرها الجعدي فوق الرأس، ويستقر تحت الكتفين، ثم ينتفض. الى جانبها، سيدة اكبر منها سناً. تناقضها في الشعر القصير والملبوس الرهباني. تركز ايماءات الوجه والعيون. توحى بأنها إحدى ممثلات الافلام الصامته الايمانية الضاحكة من عصر تشارلي شابان والاخوين لومبير. تغض عينيهما الصغيرتين حين تسلطن بالغاناء. تنتثر مع رفيقتها والكورس أصواتهم الرائعة على الجمهور. ثم تفتح عينيهما لتشاهد انفعال الجمهور. يبادلها الجمهور الحب تصفيقاً وانتعاشاً وفرحاً منذ اللحظات الأولى. يتلاشى القلق شيئاً فشيئاً من رأس الدكتور اسامة. يبدأ، كما فيرا يمّين وكل الصف الامامي، بالتصفيق تارة او بالنقر على الركبة تارة أخرى.

ليس غير زياد رحباني يعرف كيف يغلق الباب، ولو قليلاً، على هذه الصحراء العربية الغارقة في جرائم التكفير والارهاب والمذهبية. ليس غيره يستطيع أن يفتح باباً أوسع وأرحب وأجمل وأعمق صوب الحلم والفن المحترف والمحترم والراقي والنبيل.

تتقدّم منال سمعان بفستانها الاسود صوب المايكروفون. تخفضه قليلاً لأن كوميدبي برنامج «إربت تحل» سبقها اليه فرغاه. يعطي الماستور المتعدد الوظائف والمواهب هاني السبيليني إشارة الانطلاق. ما ان تنتثر هذه المبدعة السورية أولى جملها الصوتية على الجمهور حتى تصدح الآهات

في كل القاعة. فيروزية الصوت هي. مشرقة الاطلالة على بساطة. يسكنها الفن في كل جوارحها فتبدع. لعلها الوحيدة التي تستحق فعلاً لقب فيروز الثانية (أطال الله بعمر الأولى لأنها عصية على التكرار).

يصفّق لها الجمهور من اولي جملها. يرتفع التصفيق فجأة أكثر. ثمة من دخل امام الجمهور من دون ان ينظر الى الجمهور. رأس منحّن بنظارتيه. «جيليه» بنية فوق قميص مقلم. يده ملفوفتان بقماش طبي أسود. أشياء كثيرة اخرى على تلك اليدين اللتين سيكتشف العالم يوماً، ربما، أنهما لم تُعطيا سوى لعظماء مثل شوبان وباخ وموزار وارمسترونغ وغيرهم. مشاغب منذ دخوله. لو لم يشاغب لما كان هو. ولأنه هو، فكل مشاغبه منه تثير ضجة. يفهمها قليلون جداً، ويعرّف فهمها على كثيرين، فينتقدون او يمدحون دون ان يعوا كنه ما قيل.

حين ينتقد زياد رحباني حزب الله، هذا يخدم الحزب. من لا يقبل الانتقاد هو حزب شمولي. ولأن الحزب ليس شمولياً، فهو فهم ان نوايا هذا العبقرى بيضاء كتاريخه، نضالية حيث يعرّف النضال، صادقة كجملة موسيقية صافية رغم تعقيدها تخرج من تحت أنامل زياد رحباني.

هذا في كل الاحوال أمر عابر. الأهم، والذي ربما لن يفهمه كثيرون لا الآن ولا غداً ولا بعد عقود، هو ان موسيقى زياد رحباني تخرج من اطار التصنيفات المعهود. حين يغيب هذا الاسطورة في عالمه وهو منحّن فوق البيانو، يرى في الموسيقى ما يشبه رؤى الصوفي في ايمانه. لم ينظر الى الجمهور أبداً، نظر الى داخله او الى فرقته. وحين يؤلّف، فهو يؤلّف، لا يسرق ولا يتأثر ولا يتفنّن في أخذ جملة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل غيره من مدّعي التأليف. لا، هو يؤلّف، ويتعب، ويسهر ويؤتعب من معه، ومن يؤلّف هذا النمط من الموسيقى فإنما يستند الى ثقافة هائلة ومعرفة واسعة غريبة عن العالم الذي يعيش فيه زياد رحباني. وحدها عبقريته عرفت كيف تبسّط وتسهّل هذه الغرابة لتصبح نغمات مألوفة على آذان سامعيه.

والأهم أيضاً، ان زياد رحباني السياسي ليس مجرد كاتب او قائل جمل مثيرة للضحك. هو منذ ريعان شبابه حتى اليوم لم يخطئ مرة في الطريق. قال ما حصل قبل ان يحصل بسنوات. لا يزال يقول ما قد يحصل قبل ان يحصل بسنوات. ضحك الجمهور في صيدا على ما كتب للممثلين الذين قرأوا كلامه، لكن لا شك ان ندرة بينهم فهموا حجم الرسائل التي بثها في كلمات بسيطة. حين رنّت جملة «يا عمال العالم اتحدوا»، وحين أبدى اعجاباً بالسيد المسيح لأنه صفع يهوداً وتجاراً، وحين أشار الى القرآن الكريم من زاوية كرمه، وحين استرجع شيئاً من الامام علي وربطه بما كتبه ماركس... وحين اختصر عبقرية الصين بجملة قصيرة مثيرة لقلق واشنطن، لم يكن زياد رحباني يقول هذا فقط لكي يضحك الجمهور... انه يعيش في عالمه، ولعله في ذاك العالم لا يزال يحتفظ بما هو أجمل وأنقى وأعمق وأصفى مما يحيط به.... فكيف لا يفكر بالرحيل.



عون التزم الاعتراف بأنه الناخب والمرشح الأول (هيلم الموسوي)